

## دور الدّين في المجتمع الإنساني



الدّين هو الحالة العقidiّة الوجودانيّة التي تقيم التّوازن بين الفرد والمجتمع، من خلال نظام القيم والمعايير، وتوكّدها في وجدان الإنسان لتمتدّ إلى صعيد الواقع، فيشعر الفرد بأنّه عليه أن يقدّم من نفسه ومن حرفيته شيئاً للآخر في حاجاته الحيوية وفي قضاياه الخاصة والعامّة، ويرى أنّه يحمل مسؤوليّة طاقته، باعتبارها جزءاً من طاقة المجتمع التي اؤتمن عليها من قبل الله، فلا بدّ له من أن يقدّمها له، ويحرّكها في مصالحه، سواء كانت مالاً أو علمًا أو قوّة أو أيّ شيء آخر، ولا يستغلها لحسابه الخاص، وإلاً كان سارقاً ومعتدلاً على الشّأن العام، لأنّ المجتمع ليس وجوداً متميّزاً في الواقع بشخصه، بل هو وجود الأفراد الذين يعيشون في ظلّ الرابطة الاجتماعيّة التي تتمثل بالتزام الإنسان بالآخر، ما يجعل من طاقة الفرد طاقة للمجتمع بالمقدار الذي يمثل حاجة المجتمع. وهكذا تتسّع مسؤوليّة الفرد، لتشمل القيام بمهمّة حماية السّلم الاجتماعي من نفسه ومن غيره، وهذا هو الذي يؤكدّه معنى جهاد النفس في الامتناع عن ظلم الآخر، وفي جهاد العدوّ لمنعه من ظلم المجتمع، بحيث يصل الأمر به إلى درجة التّضحية بالنفس من أجل الآخر كواجب دينيّ حاسم.

إنّ القصيدة هي أنّ الدّين، وفي جانبه الأخلاقيّ والتشريعيّ، يحمّل الإنسان الفرد مسؤوليّة ما

يحمله في داخله من عناصر القدرة على حماية المجتمع، لأنّ الشأن العام لا بدّ من أن يتحرّك لحساب الشأن العام في ميزان القيمة. ولا بدّ للمجتمع - في التخطيط المدني - من أن لا يقهر الفرد في ذاتيّاته وحاجاته الخاصّة إذا لم تحرف عن الخطّ المستقيم، فليس له سلطة عليه إلا في نطاق النظام العام. ومن هنا، يؤكّد الدّين ضرورة وجود الحرية الفردية، فلا سلطة لإنسان على إنسان، ولا لقوّة اجتماعية على حالة فردية، إلا في نطاق القانون الذي يحدّد للجميع الحقوق الفردية والاجتماعيّة، مما يدخل في حساب توزيع الوظائف والمسؤوليّات التي لا حقّ لأيّ إنسان أن يتغّاوله ليتدخل في شؤون الإنسان الآخر، فلا مجال للتّمرّد والعدوان والانحراف، لأنّ النّوازع الذاتيّة الخاصّة لا حرية لها - من جميع الجهات - في الإساءة إلى الواقع الفرديّ للإنسان الآخر أو للمجتمع كله، فإذا تجاوزته، كانت مسؤولةً أمام الله في الدُّنيا والآخرة، لتواجه الحساب الدقيق والعقوب الصارم، إصابةً إلى مسؤوليتها في الدُّنيا في دائرة النظام العام للمجتمع في قيادته العامة.

إنّ الدّين يضع المضامين الاجتماعية التي تعمل على إدارة الأمر بطريقة إنسانية واقعية، بحيث تندفع إلى معالجة المشاكل الطّارئة في نطاق الفرد والمجتمع، ليبقى التوازن العام في حركة القيم التي يخترنها الجميع في معنى الإيمان، ويتحرّك من خلالها في معنى المسؤوليّة، فيلتقي الواقع الداخلي بالواقع الخارجيّ في إقامة القاعدة العامة الضابطة للواقع كله، في حدود الإمكانيات الواقعية للانضباط الإنساني.

إنّ للدّين نوعاً من التركيز على وعي الإنسان لنفسه في تاريخ الوجود منذ بداية خلقه، فليس هو شيئاً صائعاً حائراً في صبابيّة وجوده، بل هو وجود يملك تاريخاً متداولاً في الماضي، فهو جزء من مسيرة إنسانية كبيرة تؤثّر فيه، وتصنّع له ذاكرة تاريخيّة تحدّد له إرثه الإنسانيّ منها، وهو - بعد ذلك - يصنع تاريخاً جديداً من خلال جده، عن طريق المستقبل الذي يصنع قاعدته وجذوره وأبعاده وامتداداته في مسؤوليّته عن صنع التّاريخ الجديد للحياة في الثقافة والسياسة والاقتصاد والحركة الواقعية على مستوى الأهداف والتطّلّعات.

وعلى ضوء هذا، فإنّ الدّين يحدّد للإنسان وظائفه الفكرية والعملية، بحيث يستشعر بأنه جزء من النّظام الكوني في وجوده الذي يقف بحساب ويتحرّك بحساب، في وعيه لنفسه ولغيره وللحياة من حوله، وفي التّرابط الوجوديّ بالإنسان الآخر في القضايا التي تتوقّف عليها المسؤوليّات الاجتماعيّة.

وبذلك، لا يبدو الاجتماع الإنسانيّ في هذا الخطّ شيئاً صائعاً حائراً في فكر التّجريد، بل يتحول إلى كائنٍ حيٍّ متّفاعلاً متّربطاً مفتوحاً على مسؤوليّة الإنسان في وظيفته الاجتماعيّة في صنع

التّاريـخ، وفي إدارـة الحياة، في عملـيـة اـنفتـاح وـتكـامل وـالتـزـام.

ومن خـلـال هـذـا العـرـض، نـخـرـج بـنـتـيـجة عـمـلـيـة، وـهـي شـمـولـيـة الدـور الدـيـني الفـاعـل فـي الـاجـتمـاع الإـنسـانـي، لـجـمـيع نـواـحـي الـحـيـاة فـي النـشـاط الإـنسـانـي؛ فـي الـسـيـاسـة وـالـاقـتصـاد وـالـاجـتمـاع، مـن نـاحـية عـلـاقـة هـذـه العـناـوـين بـالـقـيـم الرـوحـيـة وـالـأـخـلاـقيـة وـالـمـعـايـير الإـنسـانـيـة وـالـوـطـائـف الـاجـتمـاعـيـة، باـعـتـبار أـنـ الإـيمـان باـهـىـة في وـعـي الإـنسـان لـمـسـؤـوليـتـه أـمـامـه، يـمـتدـ في حـيـاة الإـنسـان في عـلـاقـتـه بـنـفـسـه وـبـالـآخـرـين في مـخـتـلـف القـضـاـيـا الحـيـويـة، وـهـذـا ما نـلـاحـظـه في بعض الأـدـعـيـة المـأـثـورـة التي يـطـلـبـ المـؤـمـنـونـ فيها من رـبـهـ أـنـ يـقـيـهـ مـعـصـيـة ظـلـمـ الآخـرـ بالـقـوـةـ نـفـسـهـاـ التـيـ يـطـلـبـ فـيـهاـ أـنـ يـقـيـهـ مـنـ ظـلـمـ الآخـرـ لـهـ: «الـلـهـمـ فـكـماـ كـرـهـتـ لـيـ أـنـ أـطـلـمـ فـقـنـيـ منـ أـنـ أـطـلـمـ»، ماـ يـوـجـيـ بـأـنـ الإـحسـاسـ الدـيـنيـ يـنـفـتـحـ عـلـىـ الآخـرـ فـيـ كـلـ القـضـاـيـاـ الـحـيـويـةـ الـمـتـصـلـةـ بـسـلـوكـهـ مـعـهـ، مـنـ مـوـقـعـ خـوـفـهـ مـنـ إـهـمـةـ وـمـحـبـتـهـ وـمـسـؤـوليـتـهـ أـمـامـهـ، فـلـيـسـ الـمـسـأـلـةـ فـيـ اـبـتـعـادـهـ عـنـ الـانـحرـافـ مـسـأـلـةـ مـصـلـحةـ شـخـصـيـةـ أـوـ حـالـةـ طـارـئـةـ، بلـ هـيـ مـسـأـلـةـ ضـمـيرـ دـيـنـيـ يـتـغـدـرـيـ مـنـ الـقـيـمـ الـتـيـ تـجـعـلـ مـنـ سـلـامـةـ عـلـاقـتـهـ بـالـآخـرـ وـسـيـلـةـ مـنـ وـسـائـلـ سـلـامـةـ مـصـيرـهـ عـنـدـ إـهـمـةـ، لـتـكـونـ فـيـ مـسـتـوىـ الـأـهـمـيـةـ الـكـبـرـىـ فـيـ حـرـكـةـ وـجـودـهـ.

وـيـبـقـىـ لـلـحـرـيـةـ الـفـرـديـةـ وـالـاجـتمـاعـيـةـ فـيـ الـمـسـأـلـةـ الـدـيـنـيـةـ دـورـهـاـ الـفـاعـلـ فـيـ الـاجـتمـاعـ الإـنسـانـيـ، مـنـ خـلـالـ الـمـبـدـأـ الدـيـنـيـ الـذـيـ يـؤـكـدـ أـنـ لـاـ سـلـطةـ لـإـنـسـانـ عـلـىـ إـنـسـانـ إـلـاـ مـنـ خـلـالـ الـحـقـوقـ الـتـيـ قـرـرـهـاـ إـلـيـهـ لـلـإـنـسـانـ فـيـ عـلـاقـتـهـ بـالـإـنـسـانـ الآخـرـ، أـوـ مـنـ خـلـالـ التـزـامـاتـ الـإـنـسـانـ المـقـطـوـعـةـ عـلـىـ نـفـسـهـ بـمـاـ يـشـبـهـ الـتـّعـاـقـدـ، مـاـ يـلـزـمـ بـهـ نـفـسـهـ مـعـ إـهـمـةـ أـوـ إـلـيـانـ الآخـرـ، بـحـيثـ يـخـمـنـ الـفـردـ وـالـمـجـتمـعـ لـقـاعـدـةـ عـقـيـدـيـةـ لـلـوـاقـعـ كـلـهـ، تـؤـكـدـ أـنـ الـفـردـ حـقـّـاـ عـلـىـ الـفـردـ وـالـمـجـتمـعـ، وـأـنـ الـمـجـتمـعـ حـقـّـاـ عـلـىـ الـفـردـ فـيـ كـلـ القـضـاـيـاـ الـحـيـويـةـ الـتـيـ تـنـتـظـمـ فـيـهـاـ الـأـوـضـاعـ الـفـرـديـةـ وـالـاجـتمـاعـيـةـ فـيـ الـحـقـوقـ أـوـ الـوـاجـبـاتـ، بـحـيثـ لـاـ يـتـحرـكـ الـوـاقـعـ مـنـ حـالـةـ اـهـتـازـ، بلـ مـنـ حـالـةـ ثـبـاتـ وـالـتـزـامـ. هـذـهـ هـيـ الـإـيـجاـبـيـاتـ فـيـ الـفـاعـلـيـةـ الـدـيـنـيـةـ.